

دلالة "الجنس" في قصص الأديب غانم الدباغ

عزيز لطيف ناهي

المديرية العامة لتربية ذي قار

wwwmm404aziz@gmail.com

تاريخ نشر البحث: 2021/4/25

تاريخ قبول النشر: 2021/1/17

تاريخ استلام البحث: 2020/12/12

المستخلص

الأديب غانم الدباغ ظهر ولعه بالجانب الأدبي في بدايات عمره الأولى، مما رسخ لديه منذ الصغر، الميل القصصي، ساعده على ذلك، ولعه بالمطالعة الخارجية. تميزت مجاميعه القصصية الرائعة بمقدرتها علىولوج إلى دواخل النفس الإنسانية وسبر مكنوناتها الدفينة. شكل الجنس في قصصه محوراً مهماً من محاور قصصه، فالجنس عبارة عن لوحات صغيرة صورها القاص من خلال ما حفظته ذاكرته من بواكير الطفولة، ليعبر لنا عن بعض ما تفرزه تلك الاحياء الشعبية بكل ما تمثله من قيم وتقاليذ وما تعرف عليه المجتمع من صور حياته. ان غانم الدباغ في مجموعته القصصية، قاص يجمع بين الجنس والوطن، إذ إن دلالة الجنس عنده تمثل تعبيراً عن الخذلان السياسي للشعب، و فرق كبير بين البحث عن المرأة وبين البحث عن شيء ما، فالمرأة والجنس هما عنوان للقضية التي ينشدها لتحرير نفسه والمرأة والشعب فكان أن وظفها لاقتلاع كل جذور الفساد والاستبداد والإرهاب الفكري بمختلف أنواعه.

الكلمات الدالة: دلالة الجنس، غانم الدباغ، الادب القصصي

The Connotation of "Sex" in Ghanem Al-Dabbagh's Stories

Aziz Latif Nahi

General Directorate of Dhi Qar Education

Abstract

The writer Ghanem Al-Dabbagh showed his fondness for the literary side in his early years, which established him from a young age, the narrative tendency, helped him in that, and his passion for external reading. His wonderful story collections were distinguished by their ability to penetrate into the interior of the human psyche and probe its hidden components. Sex in his stories formed an important focus of his stories, as sex is small paintings that the storyteller portrayed through what his memory preserved from early childhood, to express to us some of what is produced by these neighborhoods Popularity with all the values and traditions it represents and what society knows about in terms of its life.

Ghanem Al-Dabbagh, in his collection of stories, is a narrator who combines gender and homeland, as his connotation of sex is an expression of the political disappointment of the people, and a big difference between the search for women and the search for something. And women and the people, so he used them to uproot all the roots of corruption, tyranny and intellectual terrorism of all kinds.

Keywords: The Connotation of Sex, Ghanem Al-Dabbagh, Stories

التمهيد

ولد غانم الدباغ سنة 1923، حسب رواية حميد المطيعي في موسوعة أعلام العراق في القرن العشرين[1]، عصف الظروف السيئة بعائلته منذ طفولته المبكرة وبطلاق امه تفككت هذه الأسرة وتزوج الأب من امرأة من اهل الريف، وذهب معها إلى الريف، وترك ام (غانم) امراته المطلقة في الموصل، وانتقلت الأم للسكن مع (أخيها)، فلم يعرف القاص (غانم- الابن الصغير) عن أبيه أي شيء، وقد بدت علامة الفقد المبكر لعطف ورعاية الأب أثرها الواضح في مجمل قصصه، وإن لم ينشأ ذلك عن ولوج حقول المعرفة ودخول المدرسة. رغم قساوة الظروف ومقاومة الصعوبات على هذا الطفل، كان من الدماثة في الخلق واللباقة في المحادثة ومن الثقافة الشاملة التي تتعدى إلى علم النفس واللغة الأجنبية وإلى الموسيقى وإلى الأدب والمذكرات والمقالات والقصص[2].

بان ولعه بالجانب الأدبي، وهو في بدايات سنه، وأحب المطالعة وواظب عليها، بشكل متسلسل يعتمد البناء الذاتي لنفسه من خلال القراءة الغزيرة، وكانت رغبته لتطويع موهبته القصصية في الكتابة، على الرغم من ظروفه المعاشية الصعبة.

تلاقت رغبة الطموح عنده (نهم القراءة وغزارة الاطلاع) بالكتابة، مع سماعه للقصص التي تحكيها كل من عمنه وجدته لتشكل عاملاً فاعلاً وينبوعاً ثراً مهماً في إيقاد وزرع شغفه نحو المنجز القصصي، إذ تعاضدت هذه المؤثرات الفاعلة الثلاث في تجذير هذا الشغف من قبله نحو القصة.

نال (إنشأؤه) في الصف اهتمام معلمه، ما عزز الثقة بنفسه المتلومة جراء الفقد للأب، ورسخ فيها أن يكتب جريدة منزلية وبدأ العمل به برغبة مخلص... وأكب على القراءة المتواصلة المنتجة والواعية والمتنوعة، مما جعل طموحه يكبر وهمته تلو وتطالبه نفسه الواثقة بنجاحها نحو عمل أكبر من الجريدة المنزلية، فكر وحاول أن يكتب القصة ويبعث بها لخارج محل إقامته حيث التنوع الثقافي (مجلة الهاتف النجفية)، وبالفعل نشرت له المجالات قصصه، فتشجع في الكتابة وأن يكرر النشر، هذا النجاح ألزمه بمداومة المطالعة وتنوعها بتنوع مشاربها ليؤسس له قاعدة رصينة، هذا الفعل زاد من طموحه نحو الكتابة وأن يكون كاتباً ملماً بالثقافة الخارجية، حتى يكتب القصة المتكاملة بعد أن ازدادت محصلته المعرفية والأدبية من خلال تجارب الحياة وكثرة المطالعة.

كانت تتجسد في شخصية (غانم الدباغ) كل المعاني الإنسانية، لا يبخل بتقديم أي شيء من المساعدة لكل من يطلبها أو يحتاجها، ومما يتميز به بطلاقة وجهه المبتسم والجميل التقاسيم، إذ ينساب حديثه للقلب بكل عذوبة وله نغمة مموسقة بقدر ما في طياته من غزارة المعلومة.

إنه أديب واقعي[3] لم يبتعد في كل أعماله عن تسجيل ملامح ومعطيات حياة الموصل وحياة العراق، عمل معلماً، وسكرتيراً إدارياً لاتحاد الأدباء وعضواً في جمعية القصة والرواية العراقية وعضواً في اتحاد الكتاب العرب. عندما تقرأ قصصه المختارة على الوجه الذي ارتضاه - نجده أنه كاتب ذو رسالة.

(هذا ما يفسر المكانة الغالبة على بنائها وتنميتها والاحتفاظ باللمحات الحساسة، والبعد عن الإطالة والاضطراب والوعظ المباشر وحشر المعارف من علم النفس والاجتماع، إنها بمعنى أدق مكتملة، ثمرة تجريب

بدأ في النشر عام 1940 ومضى يتراكم مؤيداً بثقافة عامة وخاصة عربية وأجنبية مصحوباً بنظرة ناقدة ومزاج لا يتعجل الشهرة [4].

الفصل الأول

تعد لفظة (الجنس) إحدى التابوات المحرمة، التي يمنع على الأديب العربي التطرق لها. وإلا وقع بحسابه الرقيب على الرغم من أن تراثنا، قد تناول هذه اللفظة بصورة واضحة دون مواربة. صدرت العديد من الكتب والدراسات التي تناولت هذا المفهوم ومن أهم الكتب؛ (أزمة الجنس في القصة العربية) [5] لغالي شكري، وكتاب للناقد المغربي الكبير الداديسي بعنوان: (أزمة الجنس في الرواية العربية بنون النسوة) [6] وفي العراق كان للناقد داوود سلمان الشويلي كتاب (الجنس في الرواية العراقية) [7] يطرح هذه الثيمة على طاولة المعالجة النقدية في بعض النماذج الروائية العراقية، إذ يقول فيه: (إن قضية الجنس من القضايا التي كانت وما زالت محوراً مهماً من المحاور التي حفلت بها الرواية -والقصة القصيرة كذلك- في أدبنا العراقي منذ نشأته حتى كتابة آخر نتاج إبداعي من هذا النوع الأدبي) [7].

إن الدراسات التي تناولت تابو الجنس، ومحاولة فك إسقاطاته الاجتماعية والجمالية في الأدب العربي. هي مطلب حيوي مهم لمعالجة تلك الثقافة والقضية الاشكالية في الرواية العراقية أو في الأدب العراقي برمته [8]. يقول الدكتور علي كمال [9] في كتابه (الجنس والجنس في الحياة الإنسانية): "إن النواحي الجنسية التي تأثرت وتتأثر بالعقل الحضاري عديدة ومتنوعة وهي تشمل السلوك الجنسي من حيث طرق الممارسة الأصلية للجنس والأعضاء التي تشملها الإثارة، والعبث الجنسي واختبار الشريك الجنسي وتنوع أو تعدد العلاقات الجنسية والعلاقات الجنسية المقبولة أو المحرمة، والجوانب الجنسية لكل من الجنسين والنواحي الجمالية والقيم المعنوية للجنس، والارتباطات العاطفية والعقلانية للجنس، وغيرها من الارتباطات التي نشأت حول الجنس والدافع إلى تحقيقه في الحياة، وجميع هذه الظواهر والمعاني والارتباطات قد نشأت وتطورت في الإنسان بفعل المؤثرات الحضارية التي قد أثرت في التطور الحضاري للإنسان، وهكذا نجد أن الجنس والحضارة هما حالة تفاعل مستمرة تؤدي إلى تطور كل منهما".

إن الدراسات المتنوعة ذات البعد الفكري والفني تجعل من المنجز الأدبي، مجسمات استكشافية مبكرة لما يدور في المجتمع وما تفرزه حوادثه المتنوعة، ليعبر عنها النص الأدبي برؤية ومنظار آخر مغاير عن الآخرين، فالعمل الأدبي يمثل ضوء كاشفاً بمدى قربيه من المجتمع وشموليته على المجالات كافة.

لهذا نجد القاص البارِع والمتمكن من توظيف أدواته الفنية يستطيع أن يطرح رؤيته وفق رؤية معبرة وذات بعد فني يتجاوز حدود المؤلف والرابط لعلاقات تلك الجماعة. وعلى ضوء ما تقدم نجد أن ما يطرحه الأديب غانم الدباغ خطير فهو يتحدث عن حدود مهمة للقصة والكتاب ضمن مرحلة يعد الاقتناع الحدّي والنفسي أساساً لنجاح القصة، فالمتتبع والدارس للمجموعات القصصية للأديب غانم الدباغ يلحظ سيطرة الجنس في الأعم الأغلب عليها سيطرة تامة، كأنه العقدة أو الشغل الشاغل أو المعادل لأمر مجهول، قد يهمسه القارئ همساً ولكنه

لا يكاد يحجزه في النص فقط بعيداً عن المعامل الخارجي المؤثر في النص، فهو يحكي تجربة القاص كاملة بكل تدفقاتها وحيويتها تدفقاً يشبه النهر الذي فجر ينبوعه الأول [2].

إن المجموعة القصصية الأولى للقاص غانم الدباغ التي تكونت من (بعد الخطيئة 1948، ليلة إغريقية 1949، جرح ساق 1950، تلك الليلة 1950) [10] نلاحظ سيطرة الجنس فيه سيطرة واضحة ويتوزع فيها الجنس في القرية والمدينة.

إن دلالة (الجنس) سواء كانت في القرية أم في المدينة تعطي الهدف والغاية التي يريد إيصالها، كل هذه المفاهيم تتجمع مرة وتفترق مرة أخرى، والاختلاف بين هذه الرؤى ربما يكون من زاوية وجهة النظر، وأيضاً لتفعيل دلالة العملية الجنسية ومن خلفها الجسد، المرتكز الذي تجري عليه تلك الأفكار، وإذا كان الجنس يعد مرتكزا رئيسا في معظم قصصه إلا أنه لا يكون مفتعلاً أو مقحماً بصورة قسرية على القصة. يعد الجنس عند غانم الدباغ مؤشراً حقيقياً للخبية والخذلان التي تعاني منها الشخصية وتضطرع في داخلها، إنه يمثل صورة من صور الهروب من الواقع المعاش، كتناول الخمر وتغيبب العقل هروبا من الحقيقة، وهذا ما نلاحظه في قصة (بعد الخطيئة) فالقصة تسرد بضمير الغائب الذي يستظهره القاص في تناول الفكرة وحالة الانفعال وتصور الخيال وتعذب الضمير، حتى يكون الشاهد والبطل في آن واحد، إذ نجد الحدث جاء متأزماً، بشعاً، معبراً عن الندم.

(لقد بدأ غانم الدباغ في موقفه من ساكنه الماخور واقعياً وواقعياً فقط، رسم ما هو قائم بإزائه وما أحسه فتى مراهق انزلت قدماء، شغلته فجيعته الأنية عن الماديين والمثاليين، فتميزت القصة -بذلك- عما سواها، وعما ينتظر من كاتب يريد أن يعرف يوماً "بالالتزام" فجاءت من الفن. كما يمكن لأمر قد وقع، وعلى الآخرين أن يشغلوا بغير هذا الذي وقع، وأنهم قد يقعون على ضالة بين تضاريس النفوس) [2].

إن الدراسة النقدية لقصة (بعد الخطيئة) يجد الدارس لها أنها تناولت جانباً مهماً وكبيراً من الواقعية، وطبيعي أن ينتهي الواقع من حيث الهدف المقصود إلى شيء كالندم أو غيره.

إن الأساس في الكتابة عن الجنس، هو القيمة الفنية وطبيعة تواجده داخل المتن السردي، وكيفية تقديمه للقراء، هل هو انعكاس لهاجس إبداع الكاتب أم مجرد إضفاء شيء من الإثارة عن القصة؟

إننا مع حرية الكاتب إلى أبعد حد، فكلما ذهب الكاتب بعيداً في حريته قدم لنا أشياء لم تكن نتوقعها وربما استغور مجاهيل لا تصل إليها ولكن بشرط أن يكون هناك أدب في النهاية، وهذا ما نجده في قصة (ليلة إغريقية) لغانم الدباغ التي يصور بها فتى يعشق الفن، ويهوى الموسيقى، حتى إذا اجتمع مع فتاة من بلاد الإغريق وما تعنيه كلمة أوربا من موسيقى وأدب... حتى إذا اجتمع وإياها في نزل واحد وعند فراش واحد وجدها هي البغي التي عاناها أمس، من طينة واحدة، وحضارة واحدة وآلية واحدة.. وادفع حسابك وامض... فكانت خيبته في المعنى وفي الوجود كله، وربما زادت الفجعة هنا على ما كانت هناك... [2].

نجد في القصة "ليلة إغريقية" سيطرة الجنس على البطل المطلقة إلى الحد الذي يبلغ من التمكن منه أن يكون هو الشاهد الراوي العليم جداً.

إن تلون قصص غانم الدباغ بسوداوية واضحة كاشفة عن الآم وأمراض مجتمعه، مكنته من إبداع في إجادة الحوار الذي تطلبه القصة الذي يتطلبه في ثناياها بشيء من السبك المترابط سواء أكان الحوار خرجياً أم داخلياً، تحس بحرارة الحوار ودينامكية حركته، مراعيًا طبيعة الشخصية وموقعها الاجتماعي وما تمثله من بعد فكري، بحيث يجري الحوار باللغة الفصحى أو محلاة ببعض الكلمات العامية.

في قصة (بعد الخطيئة) وقصة (ليلة إغريقية) نجد الخاتمتين متقاربتين، فالندم هنا كالخيبة هناك، فالمرأة تمثل دور البديل عن الانتكاسة السياسية.

أما قصة (جرح في ساق) التي تدور أحداثها في قرية بعيدة، فهو فيها معلم اضافت الوحدة عليه من الكبت، فانتجت عنده احساساً بالحرمان والضياع، حتى يصل إلى حد الجنون لانتهاز أي فسحة من الوقت للتنفيس عن حالة الكبت مع أي امرأة ولو كانت طفلة مراهقة جاهلة، فالجنس هو جنس أينما كان وهذا ما نلاحظه في قصة (جرح في ساق) وقد تعرضت ساق إحدى الفتيات لجرح، فتوجهت نحوه تصحبها طفلة أخرى تلتبس منه ضماداً لجرح الساق، وحين شرع بتضميدها، غادرت الغرفة الطفلة السليمة، فبقى وحيداً معها في الدار وأخذ يروي ظمأه، بأقل الممكن من الملامسة محاولاً الاستزادة في ملامسته ومندفعا نحو ماسمحه له المكان وسوء نواياه ومستطياً حلاوة للمس.

يقول د. علي جواد الطاهر معلقاً على هذه القصة: (لقد احسن الكاتب عرض ذلك بما يكتشفه من حياة العاطفة والمجتمع والفكر، ولكن يصعب عليه أو على من يهيمه (الدرس) في القصص ان يعزو القصة إلى الالتزام، والهدف الأخلاقي والاجتماعي، والمجتمع، مجتمع القرية، حاجة ماسة إلى الإصلاح ولا شك، ولكن هل يكون الاعتداء على البراءة مظهراً للإصلاح يصلح المجتمع، ويشبع ويملاً الفراغ ويصلح المعلم نفسه ويمنع المثقف من أن يفقد إنسانيته) [2]

إن ثقافة أي مجتمع تعكس طريقته في التفكير داخل أطر زمنية ومكانية محددة وهي تحتاج إلى قنوات اتصال تحمل مفرداتها إلى من يهيمه الأمر [11].

إن الإنسان بذاته هو كائن يحتاج للكلام لأن الكلام عند الإنسان حاجة بل هو معادل موضوعي للوجود فلو حرم من الكلام فإنه يجد سبل عديدة للكلام من بينها الهواجس، فالهواجس هي الانسحاب من الواقع إلى الداخل [12] فهي تمثل المخبأ النفسي والوجداني والعقلي الذي يلجأ إليه الإنسان تعبيراً عن رفض الواقع دون أن يصادم هذا الواقع، هذه الهواجس رديف للاحتجاج ورديف للمقاومة وكما يقول (فوجو) (لا شيء أضعف من نظام سياسي لا يكثرث بالحقيقة ولا شيء أخطر من نظام سياسي يدعي تحديد الحقيقة).

إن دلالة الجنس عند القاص غانم الدباغ تعد تصويراً عن الخذلان السياسي، وبون شاسع بين السعي للحصول على اللذة عند المرأة، وبين السعي للوصول إلى شيء آخر، وهذا ما لاحظناه في قراءة هذه القصة بالذات (جرح في ساق) يمثل فيها الجنس فراراً متواصلاً من ذاته والواقع الاجتماعي حتى الناس أيضاً.

إن دلالة الجنس في قصص الدباغ قد حطمت في تحدٍ واضح ومثير وبأسلوب حوارى جريء لافت، معظم المسكوت عنه، فالقصة تصور الفضاء الواسع للبوح الإنساني والخوض بعمق في دواخل وأعماق

الشخص، فالمتغيرات التي قد تكون بفعل الجنس في ما يتركه من أثر في حياتهم تظهر رؤية وفكر الكاتب ومقدار تحقق وجهة النظر للرؤية التي يأملها بالتحقق، مما تقدم نجد أن القاص غانم الدباغ عبر عن قصته التي بعنوان (تلك الليلة) (القصة وليدة تجربة حقيقته لكن كيف ولدت؟ لقد عاشت في عقلي الباطن طويلاً والقصة كالجنين تماماً، تنمو ببطء. لكنك لا تدري ساعة نضجها واكتمالها) إذ يقول في هذه القصة: (خفق الطين في مفاصلي وارتعشت البهيمة وكثر الحيوان النابض في جسمي عن أنيابه- وانتصبت لناظري في السواد الحالك... نيران تلذع اعصابي... وهي تقطر احمراراً يتلون في أطراف تسبح في السقف (...)) وحمل الرجز في أعطافي... وأوشك الصراخ المكبوت في خلايا الوحش الضاري أن ينفجر[13].

إن القصة تبين وتبرز لنا صورة من صور عدم الثقة بالنفس والتردد التي تلازم بطل القصة على الرغم من كل المغريات التي صرحت بها وأظهرتها المرأة في تلك الأجواء المتوفرة من غرفة لا يشاركها فيها أحد غيرهما وانعدام الإضاءة بفعل متطلبات الحرب والتهديدات والصوت الهامس الذي تهمس به تعبيرا عن رسائل مشفرة تذكره بالعلاقة القديمة معه أيام الصبا وعندها من الجمال الجذاب كما يصفها (فرايت في رفيقة الصبا سميرة الليالي امرأة قد أبدعت الطبيعة في اكمال صورتها فلونت عينيها السوداويين بعمق ازداد في حديقتها الواسعتين)[10]. يدل كل ما في القصة على القلق والتردد والخجل والخيانة الزوجية فضلاً عن الخيبة التي تنتهي لها القصة، ويعلق الدكتور على جواد الطاهر على هذه القصة بقوله: (إذا كان من صفة مميزة لغانم الدباغ فهي "النفسية" وكثيراً ما وجدت هذه النفسية بـ"الجنس" حتى كان الجنس مركب فيه، وهو في قصصه لم يخرج عن ذاته، أي عن تجربته عاناها ورسخت في ذكرياته أو مذكراته، فهو مائل بإزاء القارئ (الذي يعرفه) أجرى الكلام بضمير المتكلم أم الغائب، وبلغ بالجنس درجة عالية من الفن في قصة (تلك الليلة) وقل لهذه القصة نظير في معاصراتها)[2].

تعد القصة تجربة مكتملة ومفعمة وحاوية للعديد من جماليات السرد، لتؤكد هذه القصة صفة معمقة للكتابة المميزة والجميلة والمميزة التي تحمل الهم الكبير في الوقت نفسه بما يدور من أسئلة عن الماضي والحاضر، ويأتي نجاح وإبداع وارتقاء القصة بمستواها الرفيع من اجتماع العناصر المولدة للمعنى والمصطبغة بموهبة القاص وتمكنه من أدوات نجاحه الفني.

ويمثل البطل ظاهرة الانعزالية والانطواء والانهازمية التي يتكئ عليها المثقف حين تضيق به الجوانب السوداوية، فيعبر عن حالة الرفض للواقع والخروج عليه، ولأن حالة خروجه تمرده لا يملكان الاستمرارية والثبات والنمو.

أما قصة (الماء العذب) فخلاصتها قصة معلم نفذ مأوه العذب فأثار ذلك (ضجاً يضج في أعصابه) وذهبت وسائله في الحصول على هذا الماء عيباً.. وفي القرية امرأة ساقية اسمها (ترفه) وعلى ذكرها وذكر القرويات قص القاص من كلام المحروم جنسياً في عمق وصدق وتأثر وفن حضرت (ترفه) تحمل قرية الماء فأشار إليها أن تصبه في غرفته فلما اقتربت تردد قليلاً ثم انقض عليها، فلانت فأحس فجأة بأن القرية موطن جميل

(وأصبح جسم "ترفه" هو عالمه الكبير ووجوده الذي كان يرتعش في خياله) ولم يأبه لتبدد الماء الحلو فما كان ذلك قصده أو كان العامل الحقيقي في الضجر والضعف، إنما الذي كان أصلاً وفصلاً ماء آخر وقد امتلكه [2].

يحاول القاص ان يوصل مفهوم الجنس للقارئ بصورة أكثر مما يريد إيصال المعنى ببعده الناقد للوضع الاجتماعي الراهن، أو إنما توصل الجنس وحده فلم يبق الكاتب سبيلاً إلى واقعة نقدية سياسية [14]. إنه جانب انهزام من الحقيقة عند البطل في قصة (الماء العذب) يعني طلبه المتعة بـ(ترفه) فإذا ما نالها وأشبع رغبته فيها، أراق الماء العذب وما مطلبه من (ترفه) إلا تأكيد على حالة التأزم والكبت النفسي والاجتماعي في تلك القرية الصغيرة وموقفه من الجنس هنا هو تعبير عن حالة الرفض للشباب المتهزم والعاجز عن تحمل مسؤولياته... إنه موت بعنوان الانتحار المحسوس، فإذا كان الموت بعملية الانتحار تجعل صاحبه يتذوق مرارة الموت مرة واحدة فإن شخصيات غانم الدباغ تذوق الموت في الفرار والانهزام إلى الجنس وتتجرع مرارته وألمه دوماً إنها شخصيات تستعذب حالة الوجد والألم وتستلذ به.

بلقائه مع (ترفه) الفتاة القروية وممارسة الجنس معها تصبح لديه القرية موطن الحياة ويكون متأقلاً مع القوى المسيطرة عليها بعد أن كان يكرههم [15] وهو يرى كلمته ومكانته في مدى الاستصغار والاستهانة إذا قيس مع مفوض الشرطة مثلاً أو مدير الناحية وشيخ العشيرة، وهذه القصة تستغرق في التهويمات اللفظية من دون أن تكشف شيئاً عن تأثير دور المعلم في القرية [15].

الفصل الثاني

لا غبار على وطنية القاص غانم الدباغ، وهذه الجدية في وطنيته تلقي عليه مسؤولية فنية في أدبه وتحمله هذه الوطنية مسؤولية فكرية، فكان الكاتب يشرع ببناء تجربة حديثة، تتطلب منه الإتيان بشيء جديد غير ذلك المؤلف في عالم الجنس -مبتدلاً كان أم غير مبتدل- وليس ما من شأنه توظيف الجنس في جذب القارئ عن طريق الفن القصصي.

هذا ما نجده في قصتي (الظلام المخمور) و(ستنتهي الحكاية) ففي قصة (الظلام المخمور) فقد كتبها إبان الحكم الملكي يتصاعد في العراق وسعيه للالتحاق بحلف بغداد.

جرت القصة على لسان سكران في حانة يستعرض ضائقته المادية ويربط بجملة القصيرة المفككة مسائل مختلفة تتعرض لمجلس النواب وممن يتملقون الشعب بالوطنية والقومية واعتداء اليهود على الحدود الأردنية وهبوط الصحافة ويستمر على ذلك حتى بعد خروجه من الحانة معرضاً بالوزارة إلى أن يصل إلى بيته.

إن شخصية البطل قلقة تعاني غالباً من الازدواجية بين الفكر والسلوك حيث يملئ عليها الوعي، الصراع مع الواقع المختلف إلا أنها تجد نفسها مكبلية بقيود الخوف فتدفعها إلى الثرثرة غير المجدية.

لقد كان غانم الدباغ أحد الكتاب الذين شكلوا أداة التحول الحقيقية لتقديم أقصوصة تكشف الإنسان من الداخل وتعطيل ما يصل إليه القاص من قدرات ذهنية للبطل تاركة الجمل الاعتراضية والتحليلات التي تضطرب الشخوص بداخلها [16]. برزت هذه القصة كشعاع مضيء فيه إيجابية.

أما القصة الثانية (ستنتهي الحكاية) فيها المعلم وطني الموقف يلتقي في فكره بؤس الشعب جمعاً وبؤسه فرداً، وتنتيده بالحكم الجائر معروف للعام والخاص فهو يعاني من اضطهاد مدير المدرسة وخوفاً مكبوتاً من السلطة ويتوقع فصله بين حين وآخر لكن حين ينهض أحد الطلاب بعد نهاية قراءة الدرس ويسأل المعلم قائلاً: لا استاذي هي معقولة هذي القصة ما تنتهي.... إذ كل نملة تأخذ حبة قمح وتخرج سيأتي يوم حتماً وينفذ القمح وتنتهي الحكاية) فيشعر المعلم براحة نفسية، ويقرن من سوء الأوضاع وترديها بأنها أمر لا بد أن تنتهي يوماً ما عند حد إذ يخرج من الصف وهو شديد التفاؤل طافح الاسارير لما حدث بعد ذلك من انفجار ثورة الرابع عشر من تموز [16]. من الواضح هنا أن التغير الذي طرأ على الجانب النفسي عند المعلم راجع إلى قناعة المعلم بعدم بل استحالة دوام الظلم وأنها ستزول يوماً ما، وقد توصل المعلم إلى الحقيقة التي لم يلتفت لها وينتبه وأدركها وتنبه لها تلميذ الصف الصغير، لكن هذا الصغير لم يستطع التوصل إلى هذه الحقيقة لو لم يعمل المعلم على إثراء فكره وتوعيته مما جعل التلميذ ينتبه لهذه الحقيقة.

حقق غانم الدباغ في هذه القصة خطوة ناجحة في الأدب الهادف سياسياً وهو في هذه المجموعة التي تحمل عنوان (الماء العذب) ثنائية تمزج بين الجنس والوطن وحاله في الاثنين حال معاصريه في التركيز على الجانب الفني وإثراء الوعي بالبناء العام للنص في أن يأتي على قدر كبير من التناسق والنمو أيضاً خالياً من الزوائد والموعظة والوضوح المباشر.

إن المجموعة الثانية من قصصه التي حملت عنوان (سوناتا في ضوء القمر) [17] يلحظ القارئ في هذه المجموعة أن القاص هو البطل في كل القصص، وأن شخصيته موزعة داخل النص بما تحمل من ثقافته ومعرفة وطريقة كلامها.

نلاحظ في حوار المبل الشديد إلى الداخل الخاص والمواقف المتعددة إذ يشكل فيها الجنس القاسم الغالب والمهم في الأحداث وفي المجموعة (سوناتا في ضوء القمر) قصة جديرة بالاهتمام ضمن مجموعة معنونة باسمها، حدث القصة هو علاقة بين رجل متزوج، وفتاة شابة سعاد بعمر خمسة عشر سنة، يرتبط معها بعلاقة محرمة وغير مقبولة بسبب فارق العمر، ففي السوناتا، يصبح الولع بالجنس عنده عاملاً تاركاً للعادة الاجتماعية حيث توفير ما تستوجبه حقوق من عدم التعدي على الضيف إذا ما أخذنا بنظر الاعتبار عمر الفتاة الصغير فهي قاصرة وقليلة التجربة بالحياة لتتصاع خلف رغبة جامحة ساعد في تغذيتها منذ طفولتها الرجل المتزوج كما تذكر القصة. إن حلم البوح المفتوح غير المقيد وإن كان متقناً فهو يعاني من المصايب بالخوف وتعد المكاشفة مطلب الأغلب من المتنورين، يحثهم ويشجعهم إن معالجة أمراض المجتمع لن تتحقق ما لم يكن رائدهم الصدق وتبني العمل والرؤى المخلصة لتقصي حالة الألم واستكشاف مناطق الألم والصدق الفني لمعالجته...

(انها قصة في منتهى الدقة والفن والأخلاق عندما نستدعي من مخزون التجربة أبعاداً يكشف بها القاص عن ثراء الجنس ومستويات التعامل معه) [2].

تمثل رمزية الجنس هنا والبطل في القصة القلق والازدواجية بين الفكر والسلوك الذي يؤدي إلى إغراق الذات في الأوهام الحاملة فهي شخصية غير قادرة على مجابهة الواقع وجهاً لوجه [18] فيلجأ إلى بناء بعيد عن

البناء الموباساني التقليدي فهو قد اعتمد في قصته (سوناتا في ضوء القمر) بناء جديداً بين القص والشرح وكل ما في القصة يدل القلق والخوف والحلم والنزوة والخطيئة والتردد والتقليص والخجل والخيانة الزوجية فضلاً عن الخيبة التي تنتهي إليها القصة....

بقول الدباغ في قصته (سوناتا في ضوء القمر): "إن الكتابة توحى بها السقوف الوائنة ومواخير البغايا، ومنازل التفريغ البشري-هي الهروب من سقم الفراغ أم هو الحل البائس ليقين يطاوي الحقيقية وهي تسفر عن وجهين أشدهما زيفاً ما تدعيه المدينة لتكبحنا، ثم تترك نوازعنا الأولى دفينية كسراب ملحي يذوب إذ تطفئ الطبيعة، فلا يلجمها إلا خداعها لأنفسنا" [17].

إن الخيبة والقلق بادية على لسان القاص في مضمون القصة وهي تؤكد أن الستينات تعد من أشد أوقات عدم الاستقرار السياسي التي مرت في التاريخ المعاصر، إذ تشكل قضية الجنس من القضايا التي كانت وما زالت محوراً مهماً من المحاور التي حفلت بها القصة القصيرة والرواية في أدبنا العراقي إذ يمثل تنقيساً عن الخيبة السياسية [2].

إن المرأة والجنس هو ما ينشده ويرفعه بوصفهما عنوانين بارزين يسعى بهما لتحرير الشعب والمرأة ونفسه فكان أن وضعهما هدفاً لاجتثاث كل جذور الفساد والترهيب الفكري للشعب.

أراد غانم الدباغ من المرأة ومن الجسد أن يتجسد إلى قيم ثقافية قوية لتحقيق الانتصار في هذه المواجهة، إنه جعل منها مادة إثارة وهي واحدة من مطامحه الشخصية [19].

تفرض علينا القراءة الصحيحة للمجموعة القصصية لغانم الدباغ ألا نكتفي بالقراءة الظاهرية التي يكون المعنى فيها قريباً جداً إذ إنها تتطلب قراءة أخرى للوصول إلى (معنى المعنى) فهو أسير الدائرة الجنسية من حيث الألفاظ التي اختارها لنفسه وبحسب ما تتطلبه المرحلة آنذاك فهو توارى خلفها.... قصة (ضجة في الزقاق)

حاولت قصة (ضجة في الزقاق) أن تقدم رؤية سياسية لواقع المجتمع العراقي في منتصف الخمسينات وجدت نفسها على مستوى البناء الفني المكتمل للنص، وهي تجترح النموذج المأزوم، واضعة إياه في مسقط الضوء الساطع لتحل الشخصية الهامشية فيه بعد بؤرة البنية القصصية [2].

إنها من نمط قصة السيرة الذاتية كونها وكثيرة القرب جداً لواقع الحال لمدينة الموصل وما جرى فيها من أحداث في وسط الخمسينات وتطرح فكرة التكالب على الحكم فيها بما تعرض له بطلها (خليل القولجي) إذ تطرح القصة صورة الصراع بهذا الموظف البسيط وعائلته التي تتألف من الأم والأخت والأخ، وهنا نلاحظ أن القاص غانم الدباغ يصور ويلمح لصورته مع عائلته التي تذكرنا بتشنثه الأولى وي طرح بهذه القصة جملة من المكابلات التي يعاني منها الفرد والشعب سواء كان منها ما يتعلق بالسياسة والفكر والمعيشة الحياتية والعاطفية.

لقد بدأ (خليل القولجي) شخصيته مهزوزة تحمل بذرة قلقها وتردها وسليبتها منذ الوهلة الأولى، فهو نموذج للشخصية الانانية التي تعجز عن تحقيق التواصل الايجابي مع الآخرين إذ يبدو ناقماً على الدوام من أفراد أسرته وعمه ومجتمعه الذي يحيا فيه [20].

يمتد الهوس الجنسي لبطل القصة بحساب الزمن إلى القدم إذ يعود بجذوره إلى أيام الصغر الأولى، حيث البراءة ومجالات اللعب واللهو الخالي من كل إساءة متعمدة طويلاً يضرب بجذوره في أعماق طفولته، إذ تعرض فيه خليل لاعتداء بفعل جنسي من أحد الأطفال أول مرة وهو يلعب ترك في أعماقه حالة من النقرز، بسبب حالة الشذوذ مبكراً، وشكل هذا الفعل مع ما سبقه من وعيه للعلاقة الحميمة بين والديه التي كان فطنا لها وترك في نفسه أثراً غير محمود، وأخذت هذه الأفعال تتسرب إلى نفسه وتتمو بداخله إذ يتصاعد عنده الهوس والشبق الجنسي ليتعرض لابنة عمه التي قام بتدريسها مستغلاً فيها روح المراهقة، ثم يستمر به الأمر أثر هذا الشبق الجنسي إلى ممارسة حالة النظر بشكل متخف من فتحة ثقب بالحائط لبيت جاره لينظر إلى ابنة جاره مثلنذا برؤية مفاتن جسدها وهي تمارس العادة السرية.

لقد ظهرت شخصية (خليل) في القصة بصورة معطوبة تتناهبها الأفعال الشنيعة من كل مكان ولعل أبرز هذه الآفات، الآفة الجنسية (خليل) لقد تم (خليل) تحقيق التقارب الجسدي أولاً مع امرأة لشرطي. إن هذه الفعلة الجنسية، تظهر صورة مغايرة عن السياق الطبيعي، فهي بمدى تحقق التواصل الجسدي، لكننا نجدها تعمق الولوج في التعاطي السلبي على مستوى لفعل المشين للإنسان وما صورته القاص لنا لبشاعة الروائح وقتامة اللون وبشاعة الصوت.

لقد أسهمت عدة عوامل متنوعة في تكون البعد السلوكي (الشقي) الشاذ لشخصية (خليل القولي) (فخليل) جاء من طرفين ورث منهما عفونة تلك الأسرة من طرف الوالد المسكون بالخمير ومن طرف عائلة الأم الذين يدمنون على تعاطي الخمر وممارسة العمل الجنسي معا.

في قصة (ضجة في الزقاق) نجد الطرح الناضج للرؤية ذات البعد الثوري وحالة من التفاعل الحي بن متبني التوجه الحر والثوري، والتغيير المدروس مما جعل النخب ذات التوجه الشعاري قد اختفى ولم يتبق إلا في مجالات محددة أوجبتها الظروف الراهنة التي لم يعد لها، فهي تظهر وتصدح بشعاراتها من وحي الحالة الراهنة للمظاهرة مثلاً واسبابها وظروفها يقول السارد: (لا... لا تنفرق قبل أن تجاب مطالينا ويطلق سراح السجناء السياسيين) [21].

جعل الدباغ من أبطال قصته -إذا اجتمعوا- من مناقشاتهم في السياسة والفكر بشكل عام تتطور إلى حد الاعتداء بعضهم على بعض وعدم إعطاء الفرصة للآخرين لمعرفة آرائهم... [22] أصدقاء خليل؛ المعلم صبري، والمحامي عبد الله، والشيخ يونس، هم أناس معلومون في الموصل ومن هنا لا نلاحظ في القصة أي ربط يجعل من سخونة المواقف أي تفاعل بينها وبين موقف (خليل) الذي يعيش حالة من التردد وعدم الاستقرار من جانب وبين حركته المحدودة في حياته الخاصة فكلمة تتفتح مديات الدائرة له سرعان ما ترجع بسرعة لتضييق ثنائية ومع ذلك نحس بأن الحياة تتقدم فعلاً وأن روافد التقدم عديدة تتجمع وتكون مجرى أكبر للأحداث التي تتسع وتجري بدفق أكبر... وينجح غانم الدباغ في إبراز (خليل القولي) شاهداً وناطقاً على ظروف تلك المدة الغائرة إلا أن الأحداث تضيق في القصة في حدود الحياة الضيقة التي يحياها خليل الخائف والقلق والمتردد ما بين إظهار أفكاره التقدمية وهله، ولم يتمكن غانم الدباغ في قصته هذه من الظهور إلى العالم

إلا في صورة محدودة كانت أشبه بخلفية مسرح مفتقر لأبسط مقومات الديكور كما كان يظهر ويعلن في الشارع من مظاهرات واعتصام واعتقالات، إلا أنه كان موفقاً في تصوير تداعيات (خليل) وإبراز الجوانب العامة لتلك الأحداث وعلاقتها بالحياة اليومية لخليل.. إلا أن الحواجز التي رسمها القاص علامة على الانهزام النفسي وأمره على الجبن الاجتماعي والتردد السياسي الذين غلفا سلوك الشخصية وحدا من انطلاقها الوطني وصارا بينهما وبين الإعلان عن المواقف السياسية المعادية للحكم الملكي العميل للأجنبي برغم وعي الشخصية وقراءتها وانحيازها الوطني الصادق [2].

في المقطع الأخير من هذه القصة نجد الدرس أكثر دلالة من أي درس سابق له، ويتبين الأفق الذي ينهي به صورة المشهد الذي يختتم به القصة بصورة تنتهج بالتفاؤل وبالأمل الرابط في أحشائها - المتأمل بالتغيير - إذ يقول: "هبط الدرجات الرخامية العريضة تحت الأقواس العثمانية الواطئة، عائداً إلى هناك.. إلى مدينته ورغم إحساسه الشديد بأنه خرج من الأتون سالماً...".

الخاتمة

إن الجنس عبارة عن صورة صغيرة رسمها ودونها الكاتب بما حفظته ذاكرته من أيام الطفولة ليعبر لنا عن بعض ما تتركز به تلك الازمة الشعبية بكل ما تحمله من موروث قيم واعراف ومسلمات تعارف عليها المجتمع من صور حياته، فقد تميزت مجاميعه القصصية الرائعة بإمكانيتها على النفاذ إلى أعماق النفس الإنسانية، واستكشاف قوانينها الداخلية، إنه قاص واقعي لم يغفل في كل أعماله عن ورسم ملامح حياة مدينة الموصل ووطنه العراق ومعطياتها.

تلونت قصص غانم الدباغ وأدبه بسوداوية تكشف بوضوح وتصور بكل صدق الأم مجتمعه، نتعرف عبرها على أفعال شخصياته والردود التي تدور على ألسنتهم بالحوار على واقعها والتصور الجاد لما يريد قوله من إبراز ما يجول في مكنوناتها وتفجرت هذه الرغبات في قصة (الماء العذب) وتكشف منابع إنسانيته في (الظلام المخمور) التي اعتمد في بنائها أسلوب التداخي، وجاء زمن القصة ومكانها ملائماً لهذه الأسلوب إذ تدور في مشرب شعبي وشخصياتها شعبية من قاع المجتمع إلى جانب شخصيات مثقفة مثقله بالمتاعب الحياتية، وإذا جاء الجنس محوراً أساسياً في معظم قصصه إلا أن الجنس لا يأتي افتعالاً أو اقحاماً، والجنس عنده معادل موضوعي للخيبة التي تحسها الشخصية في دواخلها، إنه نوع من الهروب من الواقع كشرب الخمرة تماماً فرغبة البطل بالماء العذب يعني رغبته بـ (تترفه) فإذا حصل عليها أراق الماء العذب وما رغبته (بترفه) إلا بديل عن تأزيمه النفسي والاجتماعي في تلك القرية الضيقة وموقفه من الجنس إدانة للشباب المتخاذلين غير القادرين على تحمل مسؤولياتهم، إنه انتحار حسي، إن شخصيات غانم الدباغ تنتحر في الهروب إلى الجنس وتجابه الألم باستمرار.

إن سمة القلق الملازمة لشخصياته البرجوازية التي تعاني من الازدواجية بين الفكر والسلوك إذ تجد نفسها مكبلية بقيود الخوف فتدفعها إلى التثرثرة غير المجدية كما في قصة (الظلام المخمور) أو إلى إغراق الذات في الأوهام الحاملة كما في (سوناتا في ضوء القمر).

أما قصة (ضجة في الزقاق) فتطرح عبر أزمة بطلها (خليل القولجي) صورة الصراع مع السلطة في الموصل عام 1956 ويتمكن غانم الدباغ من إبراز بطله شاهداً على تلك المدة الغائبة، إن الجنس هو تعبير عن الخيبة السياسية وتمثل المرأة دور المعوض عن الخيبة السياسية التي أراد منها أن تكون المنقذ له من كل ما جرى له من وراء السياسة فالجنس عنده يمثل هروب مستمر ليس من الآخرين والواقع فحسب، بل من نفسه أيضاً.

CONFLICT OF INTERESTS

There are no conflicts of interest

المصادر

- [1] أزمة الجنس في الرواية العربية بنون النسوة. الكبير الداديسي. مؤسسة الرحاب الحديثة. بيروت - لبنان. ط 1 - 2017.
- [2] أزمة الجنس في القصة العربية. غالي شاکر. الهيئة العامة للتأليف والنشر. 1971.
- [3] تأملات في الرواية السعودية. د. عبد الله الغدامي. المجلد 1. العدد 4. سنة 2011.
- [4] الترميز في الفن القصصي العراقي الحديث. د. صالح هويدي. مطبعة دار الشؤون الثقافية العامة. بغداد. 1989.
- [5] جريدة الصباح. أمجد نجم الزبيدي. الجنس واسقاطاته الاجتماعية والثقافية في الرواية العراقية (قراءة في كتاب أزمة الجنس في الرواية العراقية) بتاريخ 8 / 1 / 2018.
- [6] جريدة الصباح. جمال العنابي. أرض الصمت. بتاريخ 19 / أكتوبر / 2017.
- [7] جريدة الشعب. مقالة مع القاص غانم الدباغ. العدد 1326. في 14 / 2 / 1978.
- [8] الجنس في الرواية العراقية. داود سلمان الشويلي. ط 1. 2018. نشر وتوزيع دار المثنى.
- [9] الجنس والنفس في الحياة الإنسانية. علي كمال. المؤسسة العربية للدراسات والنشر. ط 3. 1994.
- [10] دراسات في القصة القصيرة والرواية (1980 - 1985) كتاب الأقلام. إصدار وطبع دار الشؤون الثقافية العامة. بغداد. 1986.
- [11] رحلة مع القصة العراقية. باسم عبد الحميد حمودي. نشر دار الشؤون الثقافية العامة. مطبعة دار الحرية. 1980. بغداد.
- [12] الرواية العربية (النشأة والتحول). منشورات مكتبة دار التحرير. د. محسن جاسم الموسوي. ط 1. بغداد. 1986.
- [13] في النقد القصصي. عبد الجبار عباس. إصدار دار الرشيد دائرة الشؤون الثقافية. مطبعة الحرية. بغداد. 1980.
- [14] قصاصون من العراق. سليم عبد القادر السامرائي. نشر وزارة الأعلام. مطبعة الحرية. بغداد. 1977.
- [15] مجلة الاقلام. الملف الخاص بغانم الدباغ. العدد (5-6) السنة السابعة والعشرين - مايس - حزيران - 1992.

- [16] المجموعة القصصية (الماء العذب) غانم الدباغ. مطبعة الأديب. بغداد. 1969.
- [17] المجموعة القصصية (سوناتا في ضوء القمر) غانم الدباغ. بغداد. 1971.
- [18] المدينة في القصة العراقية القصيرة. رزاق إبراهيم حسين. سلسلة الموسوعة الصغيرة. رقم 143. دار الشؤون الثقافية. مطبعة دار الحرية. 1984. بغداد.
- [19] مستويات اللغة السردية في الرواية العربية. ماجد عبد الله القيسي. دار غيداء للنشر والتوزيع. 2014.
- [20] موسوعة أعلام العراق في القرن العشرين - حميد المطبعي. ط2. بغداد. (1995 - 1998).
- [21] من حديث القصة والمسرحية. د. علي جواد الطاهر. مطبعة الحرية. بغداد. 1988.
- [22] نزعة الحداثة في القصة القصيرة. د. محسن جاسم الموسوي. نشر المؤسسة العربية للدراسات والنشر. مطبعة دار افاق عربية. بغداد.



1995

Journal of the University of Babylon
for Human Sciences